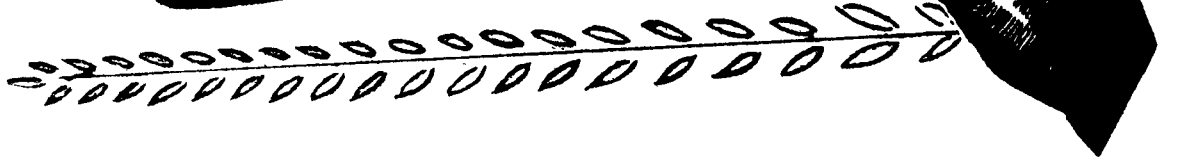


النتائج الجديدة



كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار والليل شعر ادونيس

منشورات المكتبة العصرية في بيروت



لست ادري كيف ابدأ الكلام على شعر ادونيس، فقد رافقت تطور شعره وتخطيه، ورافقت تحولاته مرحلة اثر مرحلة. وكنت في هذه المراحل جميعاً انظر الى شعره من الداخل، حتى ليصعب علي ان ادرسه دراسة موضوعية، اذا كان ثمة موضوعية فسي محاولة نقد الشعر، لا سيما الشعر الذي نقرأه اليوم.

كلامي هنا على مجموعة ادونيس الاخيرة، كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار والليل. اما التحول في الفصيحة الادونيسية فهو عمل مستمر، ويظهر بوضوح في كتاب «اوراق في الريح»: البعث والرماد، وفصيدتان للمستقبل. ولم يزل الشاعر يتخطى ويتحول، وينجلي تخطيه وتحوله في «اغاني مهيار دمشقي» و«كتاب التحولات»، ولكن هناك خطأ شاملاً ينظم شعره، من قصيدة «دليلة» (1950) حتى الفصيحة الاخيرة، وهذا الخط الجامع هو ما يدعى النفس الشعري. فالتخطي لا يعني ان يتخلى الشاعر عن شخصيته ليكتسب شخصية غيرها، انما هو التحول الدائم نحو الاجمل.

في تحوله الاخير يصل الشاعر الى موقف صوفي حاسم: انحلال الشنايه بينه وبين العالم انحلالاً تاماً، و«السفر في فارات الداخل»، كما تقول خالدة سعيد في المقدمة. وهذا التوحد الرهيب بين الانسان والاشياء يقابله شعور رهيب في القارئ: شعور باستيطان حياة الشاعر واكتشافها، في احاسيسها الحلوة والمرّة وفي معانها الوجودية. وفي فصند ادونيس التجديدة فدرّة على حمل القارئ، في بيار الرؤيا او ما يشبه الرؤيا، الى عوالم واسعة، الى اقاليم النهار والليل. هنا يصبح اللفظ كل شيء، بهز وتأسر وبوحي، تصبح الغاية والوسيلة معا... اللفظ في شعر ادونيس ظاهرة بارزة، لعلها من ابرز ظواهر شعره على الاطلاق. هنا تصبح اللفظ الينبوع الحي الذي يتدفق منه كل شيء: الكتابة والفرح، السقوط والانتصار، الشعر والطفولة... وتصبح الكتابة والفرح شيئاً واحداً، والشعر والطفولة شيئاً واحداً، ويصبح السقوط حافزاً على الانتصار وطريقاً اليه، طريقاً لا تنتهي.

يقودني هذا الكلام الى الطريق في شعر ادونيس... «كل شيء طريق» - يقول ادونيس. اجل، كل شيء طريق، لان الانسان الاخلاق، الذي ننادي له بملكوت الارض، لا يتوقف. الارض كلها طريق له، اما التوقف فهو الموت. اسمع ادونيس يقول في الطريق:

وكلما قلت لدربي ترى

الى متى عبء السرى، والسرى،

متى ادى المشتهى

وابلغ المنهى، واهدا
قالت لي الدرب: هنا ابدأ.
هذه طريقه في «فصائد اولي». اما طريقه الجديدة، وهي كل شيء هنا ايضا، فيقول فيها:
اعرف ان الطريق
لغة في شعوري، لا في المكان
لغة في العروق وفي نبضها، لغة في السريره
حيث تأتي المسافات من اول الطريق موصولة بالبريق
ببريق الفيوحات والكشف والعايرين
في التخوم الاخيره.

فهو يستشرف غيب القدر، ويصير كل شيء في الخطوة الاولى من المسافة. هنا تبدأ طريقه من الداخل، من «اول الروح»، وتنطبع على جبهته دفترًا «عربي الكتابة»، فاذا به اول المكان، والرياح البقية، يجوب الافاق ولا يصل... هكذا العظمة الحقيقية: لا سجد ولا تنتهي، وكلما وصل طالبها الى قمة تكشفت له القمم.

ونراه، وهو في طريقه، يعود الى الينبوع - الى «الطفولة القديمة الشيخوخة القديمة». عندئذ يصير المرآة، ويعكس كل شيء، يعكس حتى ذاته، ويرى نفسه اثنين: ادونيس الحاضر، الذي يحمل معه الماضي، وادونيس الذي سيحيي: «اللؤلؤ السابع» في عينيه.

هنا تدخل النار في رحم الارض وطفس الخليفة، نار الصفاء والنقاء والنضارة. نار الحياة. نار التمرد والتجدد. نار الفينيق، التي تظهر وتمحو وتخلق الشيء من جديد. نار البكارة الدائمة.

وفي صراعه مع الموت يتغلب عليه، لان الخضر شفيعه، الخضر دائماً معه، يمضي واياه على الهواء، ويقتحمان اسوار المدينة - الافى السبعة الرؤوس، ويطعان الافى الضارية: الخضسارة القشورية الزائفة، ويلبسان المدينة فناعها الاصيل: فناعاً من وجوه الاطفال... وينتمر الخضر على التنين. ويموت الموت. من هنا كانت الطفولة امل الارض. من هنا كانت الطفولة هي الصداقة، الطفولة التي يراها في طفلة الوحيدة وفي صديقه الوحيدة... وما هم بعد هذا اذا بقي الصديق الذي يرجى منه الكثير فارساً «في الضفاف القريبة لكنه لا يجيء». وما هم لو بقي «العالم صحراء القربة»، فهو يعسرف البشر كلهم، لان سريره الصافية حولت الصحراء الى واحة، فقابل البشر جميعاً... هذه هي المحبة الشاملة. المحبة العظيمة التي لا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تقبح ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالاثم بل تفرح بالحق...»

ابن الواقع في هذا الشعر؟ الواقع، مجسداً، يظهر هنا: في الطريق والطفولة، في الخيبة والكتابة، في كل شيء. والواقع هو الفاجعة: تحجر الروح في عصر المادة، موت القيم، موت الانسانية في الانسان. من هنا تنقلب المقاييس، ويحلحلم الشاعر بجمعية جديدة هي

النكبة والبناء

تأليف الدكتور وليد فمحاوي

نشر دار العلم للملايين - بيروت



بالحب والامل والثقة بمستقبل الوطن العربي خاص بنا الدكتور وليد فمحاوي رحلة طويلة من الزمن عبر مئات السنين منذ الثورة الاسلامية الى ما بعد نكبة فلسطين الى الستينيات الحالية من القرن العشرين . فسرح في اكثر من نمانانة صفحة فضايا الوطن العربي في مؤلفه العظيم « النكبة والبناء » المكون من جزئين . فلم يدع صغيره ولا كبيرة الا وتحدث عنها حديث الباحث المدقق ، واندفاع العربي المكتوي بنار النكبة في فلسطين، وايمان الاشتراكي العربي بقوه الجمهورية العربية المتحدة كقاعدة للنضال العربي ، وقيامها الطبيعية المبدعة برئاسة القائد العربي المناضل الرئيس جمال عبد الناصر . فهو يتحدث عن عصور الاسلام الاولى الزاهية بنفس الفدر الذي يذكر فيه باسئ نكبة فلسطين ، الى ان يصل الى حد رسم صورة باسمه للمستقبل العربي، صورة دقيقة لم ينس خلالها حتى الحديث عن ضرورة ايجاد توازن بين الفلة الزراعيه والنجاح الحيواني ، وتحسين النجاج الحيواني وكثيره .. الخ . (الجزء الثاني ص ٢٠٧) .

وبادىء ذي بدء ، ينبغي لنا ان نحجي جهد الدكتور وليد فمحاوي، الذي ظهر جليا في سطور كل صفحة من صفحات هذا السفر الرائع . كما ينبغي لنا ايضا ان نشهد له ايضا بوضوح الرؤيا الثورية، والشجاعة الفاتكة التي جعلته يواجه نكبة الانفصال الرجعي في سوريا ، بمزيد من الايمان بالجمهورية العربية المتحدة وبثورتها وبقائدها فيقول : « وكان جمال عبد الناصر يعبر اصدق تعبير عن وجدان شعبه العربي ، وهو ينصرف في افسى فترة من حياته ، تصرف نبي دولة لا حاكم دولة . فيؤكد عروبة مصر وحرصها عليها ، ويتحدى القوى الشريرة - الداخلية والعربية والاجنبية - التي تحاول عزلها وتحطيم ثورتها وعرفلة امال الامة العربية ، ويكتسب من تجربة الانفصال نرفا الى الاخطاء ، ومساعدة في بناء المجتمع الاشتراكي ، ووعيا لاهمية تنظيم القوى الشعبية ونعبثتها .. ووقف قائد الثورة يؤكد للامة العربية انه : ستبقى هذه الجمهورية العربية المتحدة رافعة اعلامها مرددة نشيدها مندفة بكل قواها الى بناء نفسها ، لتكون سندا لكل كفاح عربي ولكل حق عربي ولكل امل عربي » . واكد المؤلف ايمانه بالوحدة مع رئيسنا « وستبقى الجمهورية العربية المتحدة فاعدة الثورة العربية الناصرية ، وطليعة للثورة العربية الاشتراكية في الوطن العربي كافة . » (الجزء الثاني ، ص ٨٦ و ٨٧) .

« في منتصف سنة ١٩٤٨ ... استيقظ العرب من اوهامهم اللذيذة المهدهدة فزعين مضطربين ... فلسطين امست اسرائيل ، وقد تشرد عربها ، بعد ان خذلت الدول الاسلامية في منظمة الامم ، وبخاذلت الحكومات العربية في ميدان السياسة والاقتصاد ، وهزمت جيوشها في ساحة الوغى ، وظهر ان المتقين الذين وعدوا بالظفر غير المتقين الذين ابتلوا بالمذلة ! » (الجزء الاول ص ٨) .

بهذه الكلمات الحزينة المؤلة لكل نفس عربية ، يفتتح المؤلف دراسته الضخمة في نكبة العرب ، اسبابها وبواعثها وحلولها . وكلما اجال الطرف في انحاء الوطن العربي سنة ١٩٤٨ ، وجد استثمار يمزق وحدته ويجثم على ارضه ويستعفن بقوى الاقطاع الاستبدادية - التي اسماها بالفشرة الاجتماعية تمييزا لها عن باطن المجتمع العربي المنزحل - ووجد تأخرا وتعفنا وجهلا وفقرا ومرضا . فراح ينقب ويدرس ويحلل جذور النكبة والتأخر العربي .

في نهاية القرن الثامن عشر كانت الصورة كالاتي : الامبراطورية العثمانية تسدل ظلما على الوطن العربي ، ولم تكن هناك وحدة عربية في ظلها ، كانت اللولة عبارة عن ولايات يحكمها ولاة نيابة عن السلطان، يعدونها اقطاعيات مملوكة لهم ، ما ظلوا يدفعون مقدارا معيناً من المال

« جمعية الحيوانات الميتة والحية للرفق بالانسان » . ويلافي الشاعر، هذا الرجل الفارس ، هذا الخضر الجبار ، الياس والكتابة والسقوط، ويتصارع معها ، ولكنه يتقلب عليها جميعا بالرجاء والايمان والمحبة ، واعظم هذه الثلاثة المحبة ، التي تحول صحراء البئر الى واحة .

بقي ان احدث عن شيتين في كتاب التحولات، هما الصقر واللفة . ولو اردت دراسة الكتاب بالتفصيل لتحتم علي ان اناول شعر ادونيس برمته ، وهذا ما اتركه للمستقبل . وهناك اشياء كثيرة في كتاب التحولات يجب ان نتناولها لتكون الدراسة وافية ، مثل شكل القصيدة والوزن والرؤيا الشعرية .

اما الصقر فهو صقر فريش ، عبد الرحمن الداخل ، البطل الاموي الذي فتح الاندلس . واستخدم الشاعر حكاية هذا البطل يدلنا على ان في مصادرنا العربية القديمة طاقات كثيرة يمكن ان نفجرها ، ولكن لا تفجر هذه القوى انكاملة سوى عبقرية مثل عبقرية ادونيس . الا ان قيمة الصقر هنا ليست قيمة تاريخية ، بل فنية بحتة . فالصقر هو الشاعر ، هو ذاته التي ذابت فيها ذوات الاخرين . وفي قصيدة الصقر شبه كبير بقصيدة البعث والرماد ، من حيث استخدام القصة التاريخية او الاسطورة ، وشبه من حيث التجربة . ولكن الشاعر لا يكرر ما قاله ، لان الزمن يحمل معه التجربة الجديدة والتعبير الجديد . وعلينا الا ننظر الى التجربة الشعرية من حيث كليتها وحسب ، ولكن من حيث تفاصيلها ودقائقها ايضا . لان النظر في الكليات والنائج الاخيرة اعتساف يخرج بالشعر عن طبيعته التي ننظر الى الكلي بعين المحسوس . من هنا اختلاف الشعر عن الفلسفة وتفوقه عليها .

اما لفة ادونيس فهي قصيدة في قلب قصيدة . لفة ادونيس هي القصيدة . هي لفة القبيلة . لفة لم نالها من قبل ، ولكن اصالة الشاعر نجعلها لفة اليفة . فهو فارس الكلمات ، وكلماته نذهب الى ما وراء الحروف والمقاطع ، الى ما وراء التراكيب والاصوات . واذا سلمنا بان فارئ الشعر الحديث غير موجود ، فادونيس نجح في خلق فارئه . وانا ارى ان فصائد التحولات هذه اكثر بلاغة من جميع فصائد ادونيس السابقة . فهو لم يكن في « قالت الارض » او في قصيدة « نموز » اسد بلاغة واسرا واكثر بدقا وخطابية مما هو هنا .. فاذا كانت البلاغة مخاطبة الاخرين وايصال صوت الشاعر الى اسماعهم ، فان في التحولات بلاغة بفوق البلاغة ، لان مفعولها لا يقتصر على الاسماع ، بل يتعداها الى الداخل : يهز الفارئ هزا عنيفا حتى يبلغ حد المرض . وهذا ما حصل لي لدى فرائي « كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار والليل » ، لا سيما عندما وصلت الى الفصيديين الشرنيين : « بحولات العائس » و « اقاليم النهار والليل » . فكان الشاعر ، في استيظانه الاشياء ، ترك الاشياء تكلمنا .. وهذا ما اعتقد انه حصل بالفعل ، وهو افضى درجات الصوفية ، نتجلى في شعر ادونيس كما لم نتجلى في شعر غيره . هنا نصبح اللفة كل شيء ..

ويقولون بعد هذا ان الشعر فاصر عن ادراك الحقيقة وتصوير الواقع ، وانه يعيش في عالم وهمي من نسج المخيلة المريضة والحقيقة ان شعرا كهذا الشعر ينقل الينا الواقع في مرارته ، ويتخطى هذه المرارة الى الفرح والانصار .. يفتح المدينة بقذاعها الاصيل: الطفولة . يعيد الينا الغابة . يتعمت القبيلة ولفة القبيلة من جديد . هذا هو الشعر : المرآة والمنارة .

وهكذا لم تعد القصيدة العربية مع ادونيس بحاجة الى منبسر (جماهير - تصفيق) او مسرح (انسان يتأمل العالم الخارجي ويصفه) . وقد اكد لنا ، في تجربته الاخيرة هذه ، ان الشعر العربي الحديث يقف امام اي شعر حديث وينافسه . اكد لنا من جديد ان ملكوت الانسان ، ملكوت الارض ، ملكوت الطفولة ، ملكوت الابدية - لن يضع . انه معنا . وها نحن ، بعد كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار والليل ، ننظر ان شرق علينا تحولات جديدة .

أديب صعب

الجامعة الاميركية

عن المنافسة الحادة بين ملك مصر وملك شرق الأردن .. فقد اخبره فاروق انه استلم عدة شكاوى من حكومة شرقي الاردن وقيادتها ، مفادها ان العلم المصري الرفوع في فلسطين اكبر بصرة ستنمترات من العلم الاردني ، مما اثار عدة مشاكل خطيرة يجب سويتها ! (الجزء الاول ص ١٢٠) . وهكذا انتهت الحرب في فلسطين لصالح الصهيونيين . وكان من نتيجة الفزوة الصهيونية للوطن العربي ان تجمع الاشقاء ، والهبت النكبة فيهم روح الثورة ، فقامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ومن اهم اسبابها نكبة فلسطين . (وهكذا غدت اسرائيل رحي البلاد العربية .. ولكننا نراها كارنة اكبر ان يضيع الوطن العربي وفتسه وتفكيره وجهوده على مظهر الفزوة الصهيونية السياسي او العسكري ، ويفعل ما في طياتها من عوامل اجتماعية واقتصادية وعلمية ، وعن كونها قاعدة ارتكاز للاستعمار وشتى الفزاة .. فينصرف عن العمل الانساني في كل ميدان وعلى اوسع نطاق وباستمرار ، الى التفكير في مآسي النازحين العرب ، او البحث في مقدار التعويضات المطلوبة من اسرائيل او تكريس الجهود لمغامرة حزبية فيها . وهذا لا يفي - وانما هو دليل على - تقديرا العميق لما يعنيه وجود اسرائيل من نكبة ليس التشرذم او الصودية او الفناء اهم مظاهرها ، لانها التشرذم والصودية والفناء جميعا ...) (الجزء الاول ص ١٤٩ و ١٥٠) .

ثم يرجع المؤلف نكبة فلسطين الى الجذور العميقة للتخلف بعد عصر الثورة الاسلامية الخالدة ، التي اعقبت مقتل عثمان بن عفان وقيام الدولة الاموية - وبعدها الدزلة العباسية والامبراطورية العثمانية - وضياح الاشتراكية الاسلامية (وبعد ان كان الفلاحون يؤمنون في ارضهم ، وكانت الاراضي توزع على الفادين على اعمارها واستثمارها زمن عمر بن الخطاب ، غدت مصادر الخراج المرهق ايسام الامويين والعباسيين ، ثم امسى الحكام يوزعونها كاقطاعات واسعة للاناكبة وغيرهم من الدخلاء . واخذت بالظهور والنمو طبقة من الاقطاعيين يتقاسم افرادها اجود الاراضي في الوطن العربي ويستغلون خيراتها وجهود فلاحها ، وكان ان تاخرت الزراعة وخربت وسائل الري ، وازداد الفقراء فقرا ، لان الاغنياء اصروا على ان يزدادوا غنى . بل ان كل اصلاح زراعي او تقدم صناعي عرفه حديثا وطننا العربي قد احتكره الحكام والاقطاعيون لمصالحهم الخاصة . فمحمد علي اعتبر اراضي مصر ملكا له ، وانتشرت زراعة القطن فيها لمنفعة اشخاص معدودين . واسهم شركة القناة باعها اسماعيل لينفق على ملذاته .. وهذا الاستغلال الاقتصادي مما جعل الشعب ينقم على الامويين وعلى العباسيين وعلى الحكام في كل بلد في الوطن العربي . (الجزء الاول ص ٢١٩) ويتهم المؤلف الحكام العرب بانهم لحفظ اوضاعهم الطبقية وامتيازاتهم حاربوا كل فكر جديد ، وحطموا كل حرية فكرية ، وحاربوا المعتزلة واخوان الصفاء وابن عربي وابن رشد وغيرهم من المفكرين العرب . (لذلك كانت النكبة نتاج حكام تعاقبوا على وطننا الفا وثلاثمائة من السنين ..) (الجزء الاول ص ٢٤٠) .

ويمضي المؤلف في اندفاعه الى غايته يفكر كل تقدم عربي وكل هبة عربية وكل علم عربي وكل فكر عربي ، كقوله (وخلال مئات السنين كان كل عربي احد اثنين : اما شاكرا للحكام حامدا لنعماتهم ، او غاضبا عليهم صابرا على بلوائهم ..) (الجزء الاول ص ٢٦٨) وللسنا بحاجة الى ذكر تاريخ الثورات والهبات في طول الوطن العربي وعرضه ، اذ ان معظمها وارد في المراجع الكثيرة التي ذكرها المؤلف في نهاية الجزء الثاني من مؤلفه الضخم . ومع اعترافنا بالتأخر العربي وفساد الاجهزة الحاكمة قبل نكبة فلسطين ، الا اننا لا يمكن ان نقر المؤلف على هجومه السافر ضد الشخصية العربية والشعوب العربية واتهامها (باستخذاء النفسية العربية وتخليها عن مسؤولياتها وتصورها انها الات مسيرة في ايدي الفئات التسلطة ..) (الجزء الاول ص ٢٧٠ و ٢٧١) فيدون خوص في بطون كتب التاريخ ، لا نحسب ان المؤلف يفعل عن الاشادة بثورة ٢٣ يوليو المجيدة في مصر ، وثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ في العراق ، وثورة الجزائر ، وثورة اليمن ، والثورات المتعددة في كافة ارجاء الوطن

للسلطان ، وعندما ضعفت الامبراطورية العثمانية ، انقطعت كل صلة للسلطان بالولايات والولاة ، وظلت الدولة تحتضر حتى انتهت . بينما تمكن الاستعمار من احتلال اجزاء الوطن العربي المزقة اشلاء . وقامت الثورات والهبات في ارجاء الوطن العربي . ويذكر المؤلف ان اولى محاولات الوحدة العربية بين مصر وسوريا تمت على يد محمد علسي ولكنها فشلت . (الجزء الاول ص ٢١) ونود ان نذكر بان هذه لم يكن وحدة بارادة شعبين ، انما كانت عملية صُم يقوم بها حاكم اجنبي هو محمد علي لتكوين امبراطورية ينزع ملكيتها ويلصقها باسمه .

ويستطرد الدكتور وليد قمحاوي فيتابع - خطأ - المرحوم شهدي عطية في كتابه (تطور الحركة الوطنية في مصر) في قوله عن حركة مصطفى كامل (استمرت الحركة الوطنية حركة مثقفين اساسية ، فلم تنجح في تكوين جذور قوية لها بين الطبقة العاملة ..) ونقول خطأ ، اذ ينبغي للمؤلف ان يعرف ان الطبقة العاملة المصرية لم يكن لها وجود واسع في تلك الفترة ، بعد اضمحلال حركة التصنيع بوفاة محمد علي .

وبينما الوطن العربي يسيطر عليه المستعمرون ، تمكن الصهيونيون من الحصول على وعد بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧ ، الذي حقق احلامهم في دولة الشعب المختار بعد تحررهم من العزلة والجمود الفكري ، ابان الثورة الفرنسية ، فتحقق لليهود تطور فكري وعلمي ، جعل منهم العلماء والمفكرين والفلاسفة ، وتزايدت حركة اضطهاد اليهود في روسيا ، فازدادت عنفة صهيون وتمسكهم بالوطن القومي . وتكونت في أوروبا فئات يهودية مثقفة متمكنة من كافة اطراف العلم الحديث والتكنولوجيا . وما انتهت الحرب العالمية الاولى وانعقد مؤتمر الصلح في سنة ١٩١٩ حتى بدأت الصهيونية تشتري الاراضي بكل فرش تجمعها من ابناء اليهود ويؤسس المستعمرات الزراعية على أحدث طراز علمي ، وتستجلب لها اليهود يفلحون الارض بالوسائل العلمية ويصنعون المنتجات ، ويديرون الاراضي بلا اقطاعية . بينما كان وضع العرب في فلسطين منتهى التأخر علميا ، فالارض تزرع بنفس الطرق البدائية العقيمة ، وخيراتها تنهب الى الاقطاعيين المقيمين في المدن المنغمسين في اللذات . والانسان العربي في فلسطين يهلك فواه بلا جدوى من اجل افراد معدودين . وحتى عندما انعقد اول مؤتمر عربي في دمشق سنة ١٩١٩ ، واثان في سنة ١٩٢٠ ومؤتمرات اخرى ، اتخذ المؤتمر عدة قرارات حماسية برفض فكرة الوطن القومي الصهيوني وانتهى الامر . العرب يقومون بالمظاهرات واليهود يشتررون الاراضي ويؤسسون المستعمرات ويحققون الاكتفاء الذاتي بداخلها . وعندما تسلم هتلر زمام الحكم سنة ١٩٣٣ وبدأ اضطهاده لليهود ، زحف علماؤهم ومفكروهم باحدث الوان الحضارة الأوروبية الى فلسطين ، فاضافوا امتيازا جديدا لليهود في مقابل التأخر العربي . (وخلال فترة امتدت ثلاث سنوات دخل فلسطين ١٤٠٠٠٠ مهاجر معظمهم من هذا الصنف الراقي واشترت الصهيونية من العرب ٦٠٠٠٠٠٠ دونم بخمسة عشر مليون جنيه ، واخذت منهم امتياز تجفيف اراضي الحولة البالغة مساحتها ٣٥٠٠٠٠٠ دونم واصبحت تملك نصف الاراضي المشجرة .) (الجزء الاول ص ٥٩) .

بينما ظل العرب في تناحرهم وحزبيتهم وضجيجهم . وزادت الحرب العالمية الثانية واضطهاد النازية لليهود من هجرتهم الى فلسطين . وبين الهنافات العربية والتأخر العربي قسمت فلسطين الى دولتين عربية واسرائيلية ، ووضع الاستعمار صنائعه من الولاة على كراسي الحكم في الدول العربية ، وازداد التمزق العربي والرعب العربي ازاء المذابح الصهيونية ، حتى اذا جاء يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ لم يعد يتنصص اليهود سوى اعلان كيانهم دوليا ففعلوا دون مقاومة تذكر . ثم عندما خاضت الجيوش المعركة تحت العيون الانجليزية لسبب اخر غير تحرير فلسطين ، كضم اجزاء منها قبل ان يضمها حاكم عربي اخر ، وتلبية الشعوب العربية عن واقعا الاجتماعي المظلم . وبينما كان الفريق الصهيوني يؤمن ان (الحرب الحديثة هي حرب الشعب بطاقته الكاملة وحياته العامة .. فكل واحد يعتبر في الجبهة ، طوعا او كرها ، وسيان اكان رجلا ام امرأة ، كبيرا ام صغيرا ..) كان الوسيط الدولي يحكي

واروع حركة شهدها الوطن العربي طوال ثلاثة عشر قرنا . « (الجزء الثاني ص ٨٤) .

ثم حدثنا المؤلف عن ثورة عربية اخرى ، هي ثورة الجزائر التي اعدت العروبة الى ذلك الجزء الذي عزله الاستعمار عن الوطن العربي وعن القومية العربية ، التي تعد خطوة كبرى في طريق الثورة العربية الاشتراكية الكبرى . ثم حدثنا حديث العربي المسلم المؤمن بان الاسلام لم يكن ديننا عظيما فحسب انما هو ثورة اجتماعية شاملة من اجل تنظيم المجتمع العربي وتحريره ومنع الظلم الاجتماعي عنه واناها كافة الجريات له . « وبين ثورة محمد المبدعة لتحرير الوطن العربي من الفزاة وتحقيق وحدته وتخليص الانسان من الظلم والاستغلال والجمود . . وبين قيادة عمر العبقريه للمضي قدما بهذه جميعا تحت شعاره الجميل : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرازا . . عاش الوطن العربي اروع ايامه واكثرها اشراقا ، وادرك سكانه ان هذه الثورة هي الرد الصحيح على التحديات - الرد العبر عما في وجدانهم ، والتفاعل مع واقفهم والمحقق لامالهم ومثلهم . « (الجزء الثاني ص ١٤٨) .

ثم قلب المؤلف النظر في حاضر الوطن العربي فوجده اشلاء مبعثرة ، ودولات يقوم عليها حكام يمجدون الحدود الوهمية التي فرضها الاستعمار منذ زمن فريب لتمزيق الوطن العربي ، وفوضى وخسوع فكري للحضارات الاوروبية رأسمالية وماركسية . لولا قيام نكبة فلسطين التي ايقظت الروح العربية الموحدة وجمعتها في سخط واحد والم واحد وامل واحد . فاحس الليبي باحساس السوداني ، باحساس الفلسطيني تجاه اسرائيل قاعدة الاستعمار وركيزته في وطننا . ويشير هذا الكيان الصهيوني الاستعماري ، التهديد العنيف للكيان العربي ذاته لاغراض اسرائيل التوسعية في اراضي الوطن العربي ، بحيث اصبح واضحا « اننا نحن ابناء الوطن العربي المعاصرين للنصف الاخر من القرن العشرين ، نجد انفسنا في اشد الموافق حراجه ، لاننا على مفترق طريقين : البناء او الفناء . . « (الجزء الثاني ص ١٥٦) .

هذه هي القضية الحقيقية التي وضع المؤلف عليها يديه وفكره ، وواصل بحثها وشرحها من خلال صفحات الجزء الثاني من مؤلفه العظيم الذي قاربت صفحاته الخمسمائة عدا . ولا طريق للبناء غير طريق الجمهورية العربية المتحدة ، ولكن يجب ان تشارك الشعوب العربية قائدها جمال عبد الناصر العمل من اجل البناء ، يجب ان يطرح شعبنا العربي الانكالية جانبا « اذ اصبحت اكثرية الجماهير وحتى الطلائع الواعية في عدة اقطار عربية متكلة على الجمهورية العربية المتحدة وقيادتها ، ومنظرة من جمال عبد الناصر ان يانها بالحري والوحدة والاشتراكية ويحقق لها كل امانيتها ، بينما هي تفت في سباتها . « (الجزء الثاني ص ١٧٢) . ثم يؤكد بضرورة قيادة الحركة العربية الواحدة لكافة التنظيمات الطليعية في الوطن العربي وتنسيق النشاط والحركة فيما بينها لصالح التقدم العربي . ثم يؤكد ان على كل مواطن دورا اساسيا في المعركة ، معركة البناء ومواجهة التحديات الاستعمارية والصهيونية والرجعية ، كل مواطن له دور في الطليعة او في القاعدة . وتنمية المواطن العربي وتوعيته هي اول واجبات الطليعة العربية لوضع الاشتراكية العربية كامل يضيء للجماهير سبيل كفافها لانه نابع من ذاتها ومن وجدانها . فالمواطن العربي هو قاعدة البناء العربي ، واركانه الاربعة ، الاجتماعي بالقضاء على الطائفية التي تمزق الوطن العربي ، والرجعية التي تقفل نشاط المرأة نصف المجتمع ، والتأميم ، والتأمين . . . والركن الثاني هو الاقتصادي ، يجب الاستفادة من كافة الشروات المعدنية والنفط ومشتقاته ونصنعها ، توزيع الارض على من يزرعها وزرعها بطرق علمية واستصلاح الاراضي وزرع الصحارى ، وايجاد التوازن التجاري في الميزان التجاري والتخطيط ، والاقتصاد الموجه . فاذا ما اتينا الى الركن الثالث ، الفكري ، فيجب ان تمحي الامية ويجب تقديس الوقت واستغلاله للصالح العربي الفردي والاجتماعي . ويجب منح فرص متكافئة في الثقافة والتعليم ، ويجب تخطيط التعليم بحيث

العربي ضد الاستعمار والرجعية والتخلف والنكبة . كما لا يمكن ان نقره على ان « النكبة الحانفة بالوطن العربي استمرت ثلاثة عشر قرنا . « (الجزء الاول ص ٢٨٦) لاننا بذلك لنفي الصفحات المجيدة في التاريخ العربي ، بل لنفي القومية العربية ذاتها ، لان القومية العربية لم تشهد اقصى حالات ازدهارها الا بعد ظهور الاسلام وامتداد الفتوحات الاسلامية مع مسيرة الزمن . بل لا بد ان نشيد بتأثير ازدهار العربي بعد الاسلام في تقدم البشرية جمعاء .

وفي فصلين متتاليين ندد المؤلف كويتي عربي ممتز بقوميته ، بمخاطر الانفماس في كلتا الحضارتين الغربية والسوفييتية كمظهر من مظاهر النكبة ، رغم اشادته بالثورة الصناعية في غرب اوربا وبالفلسفة الماركسية ونتاجها في شرق اوربا .

واذا ما اتم الدكتور وليد قمحاوي الجزء الاول من الكتاب (٢٥٥ صفحة) ، بعد ان عرض لنا في ثلاثة اقسام كبيرة ، النكبة عبر التاريخ ، وعناصر الفزوة الصهيونية ، وتأثير الفزوة الصهيونية وتأثيرها بالوطن العربي ، وفلسفة النكبة واخطارها في الفترة الانتقالية بين النكبة والبناء حتى قيام الثورة العربية الناصرية في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، يقودنا الى الجزء الثاني والاكبر من الكتاب في حديث طويل ممتع عن البناء ، بناء الوطن العربي وخلصه من النكبة . فيستهل حديثه في الجزء الثاني من الكتاب بهذه الكلمات للرئيس جمال عبد الناصر : « ان القومية ليست فقط حركة سياسية ، وانما هي فلسفة اجتماعية . . انها نداء عاطفي ومصلحة مشتركة . . وكما هي شعار ، لا بد ان تكون تخطيطا اجتماعيا . . وكما هي جموع وحشود ، لا بد ان تكون ايضا تمبنة اقتصادية كاملة . . وكما هي طاقة حماس ، لا بد ان تكون ايضا جهدا وعرفا . . وكما هي حلم ، لا بد ان تترجم الى مستوى معيشة لائق لجميع العرب . تلك هي الحماية الحقيقية للقومية العربية . ذلك انه لا كرامة لجائع ولا قوة لريض ولا طمينة لمن لا بيت له ، ولا مقاومة ولا صمود لمن لا يطمئن الى غده ولن لا يشعر ان من حوله مجتمعا يكفله ويرعاه ، ولا يسلبه حقه ولا يستغله ، ومن ثم لا يهدد حريته . وسيستنصر شعبنا ما بقيت لنا ارادة الحياة و ارادة النصر . «

ومن هنا يتضح لنا على الفور مدى الايمان العميق الذي يكنه المؤلف للقومية العربية وللوحدة العربية وللإشتراكية ، ومدى تمسكه بالقيادة المبدعة للثورة العربية الاشتراكية . هو يؤمن ويؤكد ان لا نجاح الا بالحري والاشتراكية والوحدة ، لا خلاص من النكبة ، الا اذا تحرر كل جزء عربي من المحيط الى الخليج ، لتعود الى الوجود الدولة العربية المتحدة ، حرة اشتراكية ، بلا استعمار ولا رجعية ، ولهذا فان الثورة العربية الناصرية الاشتراكية هي المنطلق الوحيد للثورة العربية الاشتراكية الكبرى . وهو يؤمن بجمال عبد الناصر لانه « لم ينزل من السماء ، ولم يتحد من صلب غاز او ملك ، وانما كان واحدا منا - من الشعب العربي - ترعرع وهو يحس باحاسيسنا ، ويتكلم لفتنا ، ويؤله ما يؤلنا ، ويهتف كما هتفنا ، ويحلم كما حلمنا ، ويأمل كما املنا . . انه بشر مثلنا - يخطيء مثلنا نخطيء ، ويجرب مثلنا نجرب ، ويندفع مثلنا اندفعنا . . انه لا يعتمد على فرمان الهي او جاه موروث او عصبية قبلية وانما علينا نحن الشعب . . « (الجزء الثاني ص ١٠ و ١١) والمؤلف يشيد في وعي تام بانتصارات الجمهورية العربية المتحدة وثورتها وقيادتها ، لان هذه القيادة تمثل ابداعا حقيقيا بكشفها عن الطاقات العربية المبدعة وتحفيق امانى الامة العربية ، بابعادها العميقة ونظرتها الشمولية للوطن العربي وللعالم بأسره . ويسرد المؤلف بالتمجيد المكاسب الاشتراكية العديدة التي حققتها الثورة للمواطن العربي : التأميم ، قوانين يوليو الاشتراكية ، ٢٥ بالمئة من الارباح للعمال ، اشتراك العمال في مجالس الادارة ، السد العالي ، الموقف العربي الصلب النابع من ارضنا . . الى غير ذلك . ويؤمن المؤلف بالوحدة والاشتراكية كخط وحيد و اساسي للتغلب على النكبة وانشاء وطن عربي قومي من المحيط الى الخليج « تكون الثورة العربية الناصرية المنطلق الرئيسي نحو الثورة العربية الاشتراكية ، وتكون بالتالي اعظم

يصبح تربية للنشء العربي ، وتطوير اللغة العربية والثقافة العربية وتحريرها من الجمود ، واطلاق كافة الحريات الشخصية والسياسية . الثقافة العلمية المخططة هي سبيل البناء العربي ... الركن الرابع ، السياسي ، التحرر الكامل من الاستعمار القديم والجديد ، من كافة اشكاله والوانه سواء كانت قواعد عسكرية او معاهدات وتحالفات عسكرية ، وتحرير المواطن اجتماعيا سيحرره سياسيا ويؤمن حرية الانتخابات ، وسلطة المواطن ورقابته على الاجهزة التنفيذية والتشريعية ، ثم الوحدة العربية الاشتراكية التي يجب ان تبنى على ارادة شعبية قوية ، يجب ان تكون وحدة قوية متينة لا اتحادا فيدراليا او شبه فيدرالي . واتخاذ سياسة تحررية استقلالية تقوم على الحياد الايجابي وعدم الانحياز والسلام العالمي . وسقف البناء العربي هو الرسالة الانسانية ، يجب ان تكون لنا رسالتنا النابعة من تاريخنا ووجداننا وتراثنا الاصيل ، مع استفادتنا بكافة الانجازات الفكرية التي اثرت الفكر الانساني ، على الا تقتصر على الاشادة بالماضي العربي التليد ومحاولة الجمود عنده .

هذا هو السبيل لليقظة العربية والبناء العربي وللنضال على النكبة وتلافي اي نكبة اخرى . وخلال كل ذلك تبنى المؤلف وجهة نظر الطليعة العربية في الجمهورية العربية المتحدة تبنيا كاملا « وما دمنا قد اعتبرنا الجمهورية العربية المتحدة نواة نموذجية فاننا نستطيع القول بان مستقبل هذه المنطقة يعتمد على التناسب الديناميكي بين الجمهورية العربية المتحدة واسرائيل . وقد جاءت صفة الديناميكية عمدا ، لتدل على اننا لا نقصد بهذا العدد والكمية ، وانما الكيفية والثورية . » (الجزء الثاني ص ٤٢٢) . ولم يغفل المؤلف اشياء كثيرة كضرورة قيام الكيان الفلسطيني ، والجيش العربي القوي .. الخ . وانما نحن الذين اغفلناها عمدا لضيق المجال وفصوره عن استيعاب هذا العمل الضخم العظيم الذي يثلج صدر كل عربي ، ويملاه بالثقة والبهجة والامل .

على ان لنا بعض العتاب على ما نعدّه هنات كان اجدر بالمؤلف ان يترفع عنها ويتنبه لها ، وهو الكاتب العربي التقدمي الواعي بقضايا وطنه ، المحيط احاطة شمولية بالفكر الانساني في حركة تقدمه ونظوره . ففي صفحات الجزء الاول من صفحة ٩٤ الى ١٠٠ ، يتحدث عن الشعب العربي في مصر فيزعم ان ثورته سنة ١٩١٩ لم تؤمن بها عناصر كثيرة منه ، ويؤكد ان كفاح الجماهير في مصر انتهى بتسليم سعد زغلول مقاليد الحكم فيها ، ثم يسير في طريق المغالطة التاريخية عندما يؤكد ان معاهدة ١٩٣٦ تعد منطلقا للشرف والاستقلال لو اخلصت الجماهير في السير على هديها ولم تمض «في نومها اللذيذ» (ص ٩٨) بل والى ابعد من ذلك يذهب الدكتور قمحاي فيصف فترة الهجوم على العلمين في اواخر الحرب العالمية الثانية بان مصر « كانت اشبه بامرأة » ، « والحرب سجال في ارض مصر ، بينما سكانها - بفضل فادتهم - في غفلة سادرون .. » (ص ٩٩) وفيما بعد نكبة فلسطين « كان الشعب منقسما على نفسه » (ص ١٠٠) .

لا يا دكتور قمحاي ، هذا ليس حديث تقدمي عربي ابدا ، كيف تنهم ثورة الشعب المصري العارمة سنة ١٩١٩ بانها لم تمثل الا عناصر قليلة ، الثورة التي شارك فيها كل مصري بروحه ودمه ، والتي اغفلت قيادتها البورجوازية المضمون الاجتماعي الحقيقي لها ؟ اما وصف معاهدة ١٩٣٦ بالشرف والاستقلال فذلك ما ذهبت اليه قيادة البورجوازية المصرية ممثلة في الوفد المصري . ولكن الشعب ظل في ثورة دائما ضد هذه المعاهدة التي اعتبرها صك العبودية ، لانها بنصوصها كانت تكبل كل حرية واستقلال لمصر ، وما محاولات الراسمالية المصرية بقيادة اسماعيل صدقي لاستبدالها بمعاهدة صدقي - بيفن ، وتمزيق شعبنا الواعي لها الا دليل على عنف المقاومة الشعبية لمعاهدة ١٩٣٦ ، وقد

قدمت جماهير شعبنا الواعية من الدماء ما ينفي عنها صفة النوم ، ولم يكف شعبنا عن الثورة وتقديم الشهداء حتى قامت طليعته الواعية بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ولم يمل شعبنا وجيشنا من المحاولات الهادفة لاستغلال الصراع الاستعماري الدائر على اطراف حدودنا في شمال افريقيا - لصالح التحرر ، وما محاولات الفقيه عزيز المصري وطيعة الضباط الاحرار ابان تلك الفترة الا احد الامثلة لكفاح شعبنا الصلب . كما لا نستطيع ان نفر المؤلف على اندفاعه في اتهام الشعوب العربية بانها كانت « غارقة في جهلها وغفلتها .. » (ص ١٢٧) . فما هكذا يكون الحديث عن الشعوب المكافحة بل يجب القول ان حكام الشعوب كانوا نياما بينما الجماهير تغلي بالثورة وتعمل لها . بل انه يتجاهل حتى الفترة التاريخية الهامة بين الفاء معاهدة ١٩٣٦ في ٨ اكتوبر ١٩٥١ وقيام الثورة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وما تخلفها من ثورة الفضب التي قام بها الشعب المصري في ٢٦ يناير ١٩٥٢ واحراق الرجعية والاستعمار للقاهرة ، وكفاح الفدائيين والبوليس المصري في منطقة قناة السويس . وعشرات المعتقلات التي غصت بالملثات من شبابنا المكافح . فهو يصف هذه الفترة بان « مصر في طور انتحاري شنيع » (الجزء الاول ص ٣١) قمة اليقظة في شعبنا يعتبرها انتحارا . ويعمد المؤلف الى استخدام كثير من التعميمات الخاطئة بانهاهم كل المثقفين ، كل النشاط الثقافي ، بالتضليل والتسلية الفارغة . وبالزعم بان الاستعمار ادخل بعض التغييرات الحضارية في البلاد العربية المستعمرة ..

هذه وغيرها من الهنات التي تناثرت خطا في الكتاب ، لا تضعف من كون الكتاب اثرنا حقيقيا للمكتبة العربية وللنضال العربي ، وما اكثر ما يجب ان يكتب عن كتاب « النكبة والبناء » ، ولكن مهما كان نوع الكتابة ، فانها لن تغني اطلاقا عن قراءة هذا المؤلف الفريد الرائع .

احمد محمد عطية

القاهرة

طالعوا كل شهر

المجلات الثقافية اللبنانية

الاديب

الحكمة

العرفان

العلوم

فهي تجمل اليكم النتاج الفكري الرصين

والابحاث القيمة باقلام خيرة الكتاب والادباء